الطرافة والابتذال

في الأدب العربي

(توطئة)

ليس كل ما كان جديداً في الأدب يستحق ان يحسب طرفة أو تحفة فقد يكون الجديد قبيحاً إما خطأ فيه واما لنبو الطبع والذوق عنه واما لمخالفته الطابع العربي في كيفية الاداء والترتيب . ومما تلجأ اليه طائفة من أدباء العرب في نهضتنا الحديثة اتباع اوزان شعرية جديدة تشبه بعض الشبه نوعاً من الموشحات ولكنها ليست اياها ومن العسير ضبطها تحت أحكام معينة . هذا النهج الجديد يولع به انصاره بقصد الاغراب وادخال الدهشة على الآذان والأذهان آملين ان تجر الدهشة الى اعجاب واستحسان وهو امل يتحققونه في نفوس ضعفاء القراء ولكن هيهات ان ينال منالاً من نفوس اقويائهم . لأن القوي لا تهمه هذه الظواهر والزخارف بل يغربل ما يقرؤه ثم ينخله وينظر الى ما فيه من لباب لا من قشور متكاثفة وعلى هذه الصورة يصدر حكمه بجودة هذا الشعر الجديد أو برداءته . فمن أراد من أدباء العصر مواراة عجزه وتقصيره بهذه المستحدثات فاهمسوا في أذنه قائلين انها لا تحول دون نظر اهل الحصافة والخبرة . وحكم كل خبير يصدر عليه يفوق عشرة آلاف حكم من غير الخبراء الذين يحكمون له .

ثم ليس كل ما كان مطروقاً في الأدب يستحق ان يحسب مبتذلاً مستهجناً فقد يكون المطروق ضرورياً لايضاح ما اكتنفه من الكلام . وقد يكون مقبولاً محتملاً مماشاةً لسياق الحديث في سذاجته وصراحته . وهذا المطروق الساذج مغتفر بشرط ان لا يزيد على خمس القصيدة فان زاد فالقصيدة ليست بذات درجة عالية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه تنبيهات اجمالية يجب ان لا يغفل عنها العاقل المنصف . ولكن ليس من حق هذه التنبيهات ان تتجاوز حدودها فتخدع اذواقنا وبصائرنا وتخلط علينا بين المحاسن والمساوئ .

ومن اسرار البلاغة ومعادنها الفياضة تناول المعنى التافه وتزيينه من بعض نواحيه او تناول الفكرة المجملة وتفصيل شيء من زواياها . او الخاطر الناقص وتكميل نقصه . الى ما يشبه هذه التعديلات مما سميته توليداً في كتابي « كفيل البيان والشعر » وأوردت عليه مثلاً جمة مقتلعاً المعنى الأصلي من جذوره فإذا به مبتذل حقير في اصله حتى اذا عولج بأحد هذه القوالب أصبح مبتكراً باهي الجمال أو قريباً من قمة الابتكار . فالتوليد اذن منجم عميق رحب من مناجم حسن القول وأسرار البلغاء . ولا يليق بي ان أعيد هنا ولو باختصار ما تناولته هناك . بل أنوي الساعة ان أدل القارئ على منجم ثانٍ يتاخم طريقه طريق المنجم الأول وقد يتشابك الطريقان . ويمكنني ان اسمي هذا المنجم الجديد تنزهاً كما سميت ذاك توليداً وهو خير مرآة لوجوه الطرافة واختلافها عن وجوه الابتذال مما جعلته عنواناً للبحث الحاضر .

التنزه الأدبي اجمالاً

الذي أريده بالتنزه الأدبي الترفع عن مستوى منخفض الى مستوى أعلى مما ينطبق على الوضع اللغوي من لفظ التنزه ومعناه التباعد كما ينطبق على معنى له آخر شائع بين العامة والخاصة اي طلب النزهة في بستان او روضة أو رابية جميلة أو وادٍ ظليل او حقل ناضر او مرج بهيج الى ما شاكل ذلك . فكلا المعنيين من لفظ التنزه يلائم التشبيه المقصود بالانتقال من معنى مبتذل الى معنى طريف مستعذب . وللمجيدين من شعراء العرب في هذا الميدان قدم راسخة وباع طويل وأدل الدلائل على قدرتهم الشعرية واتساع مدى تصورهم وتفكيرهم انهم لم يقنعوا بالمعاني والتشبيهات التي طرقها كثيرون قبلهم عند ذكر ما كثرت إلفتهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

له من شمس وقمر وغيث وجبل وهواء وبحر ونحوها . بل تجاوزوا ذلك القديم المعتاد المطروق الى معانٍ جديدة ومناسبات لطيفة لا يتنبه لها الا امثالهم من فحول الشعراء وهم قليلو العدد في كل عصر وكل مصر . وهذا الذي انوي التصريح عليه في ما يلي من الشواهد الشعرية متعلقة بالشمس والقمر والنجم والغيم والمطر والطل والهواء والأرض والبحر والغدير والبئر والجبل والوادي والليل والتراب والناس وحديثهم ودموعهم وتبادلهم التحيات والسيف والرمح والسهم والحياة والموت . فان جميع هذه المحسوسات المشاهدات وجدنا لها في قرائح الشعراء المفلقين حيزاً جديداً جميلاً لا عهد لنا بمثله عند غيرهم . فقلما يرضى احدهم بالاقتصار على هداية النجم وبهاء القمر وعلو الشمس واتساع البحر ومضاء السيف الى آخر ما هنالك من المعاني المتداولة بل يستخرج لكل منها معنىً آخر طريفاً ومناسبة لطيفة . وقد حان لنا ان نسرد ذلك سرداً قريب المأخذ سهل المنال .

شواهد التنزه الأدبي في المحسوسات العلوية

اراد ابو تمام وهو حبيب بن اوس الطائي ان ينزه قريحته ويدفعها عن الالمام بضياء الشمس او رفعتها او تأجج نارها او تعميم فضلها على المخلوقات فالتفت الى ناحية جديدة ورأى ان الشمس تستحبها النفوس وان لم تحاول هي احراز هذه المحبة فقال في وصف حبيبته الحسناء :

هي الشمس يغنيها تودد وجهها الى كل من لاقت وان لم تَوَدَّدِ

تودد بفتح التاء وأصلها تتودد . وحذف احدى التاءين بقصد التخفيف قياسي في مثل هذا الموضع وقد وفق ابو تمام الى نهج جديد آخر في التشبيه بالشمس حين أراد حض الناس على الهجرة والاغتراب استزادةً لأرزاقهم وقوتهم المعنوية فقال :

وطولُ مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدَّدِ

فاني رأيتُ الشمس زيدت محبةً الى الناس أن ليست عليهم بسرمد

ولم تطب نفس ابي بكر الخوارزمي حين تصدى للتنويه بفضل احد اصدقائه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

في ان يجعله عالي المقام كالقمر او مشرق الخصال والمبادئ مثل نور القمر مما هو رث قديم بال بل تنزه عن ذلك الى معنى جديد ابتكره في ايجاد وجه شبه بين ممدوحه والقمر فقال ان صديقه يتفقد اخوانه في اكثر الأحيان عندما يكون على سعة من العيش فان اعتراه عسر وضيق قلل من مخالطتهم والاجتماع بهم شأن القمر في طول مدة بروزه للبشر عندما يقوى نوره فان ضعف نوره وهو في أوائل الشهر القمري او اواخره لم يبرز لعيون الناس الا مدة قصيرة . وهذا الذي قاله الخوارزمي :

رأيتك ان ايسرتَ خيمت عندنا لزاماً وان اعسرت زرت لماما

فما انت الا البدر ان قل ضوؤه ألمَّ وان زاد الضياء اقاما

ولم يقصر عن هذه الطرافة شاعر آخر اراد معاتبة صديق له ارتفع منصبه فأخذ يظهر له جفاء وفتوراً فقال فيه الشاعر المجفو :

سألت الله ان تسمو وتعلو علوَّ النجم في كبد السماء

فلما أن علوت بعدتَ عني فكان اذنْ على نفسي دعائي

ومعلوم ان علو النجم في كبد السماء معنى مبتذل لم يكن لذلك الناظم فضل في الاشارة اليه وانما ظهر فضله وذكاؤه في كيفية الانتفاع بهذه الناحية المبتذلة حين شبه ابتعاد خليله عنه بعد ارتفاع منصبه بابتعاد النجم عن عيون الناس . وازداد شعره حسناً بما ذكره من سابق دعائه الصالح وكيفية انقلابه عليه شؤماً وحرمانا .

وقال كمال الدين بن النبيه في وصف كوكب الصبح :

وكوكب الصبح نجابٌ على يده مخلَّق تملأُ الدنيا بشائره

وهو وصف جديد جيد للكوكب المذكور لا يتعب الذهن في استحضار صورته . وقد قصرت عن ذلك همة غيره من الشعراء فاكتفوا بما ألفوه وتوارثوه من التشبيهات . وأراد بقوله مخلق طرساً مخلقاً او كتاباً مخلقاً أي مضمخاً بالخلوق بفتح الخاء وهو نوع من الطيب يكثر فيه الزعفران .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقال مروان بن أبي حفصة في رثاء الأمير الشيباني معن بن زائدة ذاكراً وجه شبه للمطر :

فتى عيش في معروفه بعد موته كما كان بعد الغيث مجراه مرتعا

وقد تعودنا ان نرى الشعراء يشبهون ممدوحهم بالمطر في غزارة هطله وضمانه للخصب والخير . فانتقل ابن ابي حفصة من هذه الناحية الى ناحية جديدة قائلاً ان الأمطار قد تزول وتبقى آثار خيرها في المغارس والمزروعات وهكذا كان الأمير المرثي معن بن زائدة .

وقد عهدنا الشعراء يذكرون أوجه شبه متعدد للغمام من تبشيره بهطول الغيث أو من علوه في الجو او من اطراد سيره بين البطء والسرعة الى غير ذلك مما قرع الاسماع كثيراً ولكن شاعرية كثير عزة لم تقنع بهذه المعاني المبتذلة بل التفت الى ظل الغمامة ورأى خيبة من يعوّل عليه ويحاول ان يقبل ان ينام نومة الظهيرة في هذا الظل فقال متصدياً لذكر مقاطعة بينه وبين محبوبته عزة مما كان يحز في صدره :

واني وتهيامي بعزة بعدما تخليت عمـا بيننا وتخلت
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقيل اضمحلت

وذكر احد قدماء الشعراء الرياح مشيراً الى حالة دقيقة من حالاتها اذ قال ان الرياح اذا تناوحت اي هبت من نواح مختلفة الصقت بجسم حبيبته الحسناء اجزاء ثوبها بحيث تظهر محاسن جسمها في تركيبه الطبيعي الجميل فتستثير حسد النساء لها وغيرة العاشقين عليها . وهذا الذي قاله الشاعر والشاهد في البيت الثاني . وفي البيتين رشاقة اداء وبلاغة ايجاز :

ابت الروادف والثدي لقمصها مسّ البطون وان تمسّ ظهورا
واذا الرياح مع العشي تناوحت نبهن حاسدةً وهجن غيورا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شواهد التنزه الادبي في المحسوسات الارضية

من المعاني المستحدثة قول بعضهم في الأرض :

سألت الأرض لِمْ كانت مهاداً ولِمْ جُعلت لنا طهراً وطيبا
فقالت غير ناطقة لأني حويتُ لكل انسان حبيبا

وقال الأمير ابو فراس الحمداني في التراب . والشاهد في البيت الثالث :

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خرابُ
اذا صح منك الود ياغاية المنى فكل الذي فوق التراب ترابُ

واستخرج بعضهم معنىً شعرياً علمياً قائلاً ان السحاب لا فضل له على البحر لأنه اتخذ قطراته من قطرات البحر المتبخرة . فشبه بهذه الحالة حالته باهدائه الشكر الى المتفضلين عليه حيث قال :

أهدي له حسن الثناء وانما أُهدي له ما حزتُ من نعمائه
كالبحر يمطره السحاب وما له فضل عليه لأنه من مائه

واشار احد الشعراء ضمناً الى البئر — وأظنه ابا الأسود الدؤلي واضع علم النحو — فقال ان البئر قد تملأ الدلو ماء زلالاً صافياً وقد تملأها وحلاً يخالطه شيء يسير من الماء بحيث يمكن تصفيته والانتفاع به . مشبهاً بهذا المعنى الطريف سعي الانسان لمعيشته فيكون نصيبه الفلاح التام تارة ، وشيء زهيد من الفلاح تارةً أخرى ، قال :

وما طلب المعيشة بالتمني ولكن القِ دلوك في الدلاء
تجيء بملئها طوراً وطوراً تجيء بحمأةٍ وقليل ماء

وفي ذكر الجبل قال أحد الشعراء :

ويا جبلي نعمان بالله خليا نسيم الصبا يخلص اليَّ نسيمها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال آخر ذاكراً الليل وما فيه من حيرة وعجز عن دفع الضيم :

كالسيل في الليل لا يدري به احد من اين جاء ولا من اين يأتيه

وأحسن من هذه الاشارة الى الليل ماقاله ابو الطيب المتنبي في معرض تغزل وتشبيب :

وكم لسواد الليل عندي من يدٍ تخبر ان المانوية تكذب

أراد بالمانوية الملة المانوية نسبة الى مؤسسها ماني الفارسي ومن عقائدها الجوهرية ان الظلام هو إله الشر .

وقد ذكر النابغة الذبياني الليل أيضاً اعتذاراته الى ابي قابوس النعمان فقال :

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت أن المنتأى عنك واسع

وعدل بعضهم عن وصف السيف بالمضاء والافناء الى ذكر حالة أخرى من أحواله قائلاً :

كذا السيف ان لابنته لان متنه وحدّاه ان خاشنته خشنان

وفي ذكر السهم قال الأمير ابو فراس الحمداني واصفاً احدى المعارك :

ولما سار سيف الدين ثرنا كما هيجت آساداً غضابا

وكنا كالسهام اذا اصابت مراميها فراميها اصابا

ان هذا البيت الأخير من أدل الأبيات على قوة شاعرية الناظم وجودة تصوره . فقد عهدنا الشعراء يشبهون صاحب العزم بالسهم جاعلين المضاء والنفاذ وجه شبه . وهو وجه حسن لا بأس فيه . ولكن همة ابي فراس لم تقنع به لكثرة ما استعمل حتى ابتذل وسئمته الاسماع او كادت تسأمه بل التفت الى وجه جديد ادق وابعد غوراً فقد قصد في بيته المذكور انه لم يكن شيء يعوقهم عن الظفر بالأعداء الا عدم لقائهم فلما لقوهم أصبح النصر محققاً وكان مثلهم مثل السهام فبمجرد وصولها الى هدفها تفعل فيه فعلها الرهيب ويكون رامياها قد أصاب . فالبيت يحسب من معجزات الايجاز .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شواهد التنزه الادبي

في الناس وبعض شؤونهم

لقد حلق في الطبقة العليا من جو الفضيلة والانسانية من أوصى الانسان ان يعد البشر كلهم احباءه والأرض على رحب أقطارها داراً له ومأوى وملجأ أميناً من قال :

تصوَّر الناس كلهم سكناً ومثل الأرض كلها دارا

والسكن بفتح الكاف هو الحبيب الذي تسكن اليه نفسك اي ترتاح اليه .

وقال أبو الطيب المتنبي في دموع الحب :

أينكر خدي دموعي وقد جرت منه في سلك سابلِ
أأول دمع جرى فوقه وأول حزن على راحلِ
ولو زلتم ثم لم ابككم بكيتُ على حبي الزائل

وقال أحدهم في العيش :

ما العيش الا ان تحـــب وان يحبك من تحبه

وقال المتنبي في الموت :

ألف هذا الهواء اوقع في الأنفس ان الممات مرُّ المذاق

وقال فيه أيضاً :

واذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز ان تموتَ جبانا

كلمة ختام

ان هذه النماذج الشعرية فضلاً عما اشتملت عليه من طائفة طيبة تنبطن فائدة جليلة لكل أديب ومتأدب اذ تنبه ذهنه وتدله على كثير من الطرق في اجتناب المبتذلات والارتقاء الى سدة الطريف المستعذب في المعاني وأساليب الاداء وقد لا يقل الأسلوب مقاماً عن جوهر المعنى المقصود . ومعلوم ان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ناحية واسعة من منثور القول وهي الناحية الحاوية لموضوعات ألفها الشعر والشعراء تدخل تحت هذا الحكم وهذه النظرية ·

فحري بحزب الأدب واعوانه وخدامه العاملين في حقله ان يناقش كل منهم نفسه ادق مناقشة حين يؤدي قولاً منظوماً أو منثوراً لكي يتجافى به عن مواضع الرثاثة والابتذال ويسير قاصداً ردهة الاجادة فان لم يبلغ صدرها ولم يتوسطها فالأرجح انه لا تفوته عتبتها ومن ثم ينصف نفسه ويصون كرامته ويرضي القراء والسامعين اذ يعفيهم من السآمة والملل في الاصغاء الى قناطير من الكلام ليس تحتها شيء من الفائدة واللذة او تحت تلك القناطير درهم منهما أو درهمان · ولعمري لا ادري لماذا لا يتحمل الأديب من الوقت والعناء في نظم أبيات يسيرة ما تعود ان يتحمله في نظم خمسين او ستين بيتاً · فلو اتخذ أولئك المكثرون المقصرون هذه الخطة في الاقلال من النظم مع زيادة اجتهاد فيه وعناية به لرأينا المجيدين من الناظمين حوالينا يزيدون على خمسين في المئة مع انهم في حالتهم الحاضرة يقلون عن عشرة في المئة · ويارحم الله القائل :

والناس مثل بيوت الشعر كم رجلٍ منهم بألف وكم بيت بديوان

(اللاذقية) ادوار مرقص

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net